تقنات سك النقود وأثرها في تحقيق الاستدامة المالية في العصور الإسلامية

الملخص

يقدّم هذا البحث قراءة تحليلية شاملة للمسكوكات الإسلامية، باعتبارها وثائق تاريخية حيّة تسهم في فهم الواقعين الاقتصادي والسياسي للدولة الإسلامية، وبخاصة في العصر العباسي. ويسلط الضوء على تطور تقنيات سك النقود، والدور المركزي الذي أدته دور السك في تنظيم عملية السك وفق معايير دقيقة تعكس قوة واستقرار النظام المالي في ذلك العصر.

كما يتناول البحث البعد الرمزي والديني للنقود، حيث وُضعت على المسكوكات نقوش قرآنية وأسماء وألقاب الخلفاء، لتكون أداة ترسيخ للشرعية السياسية، وتوثيقًا للتحولات العقائدية والسياسية. ويُظهر البحث أن الخلفاء العباسيين تعاملوا مع سك النقود بوصفه وسيلة سياسية مدروسة، يعبرون من خلالها عن سلطتهم واستقلالهم، لا سيما في ظل الانقسامات الداخلية والتحديات السياسية. ويستند البحث إلى نماذج واقعية من الدراهم والدنانير العباسية، ليبيّن كيف عكست هذه القطع النقدية الوضع الاقتصادي من حيث وفرة المعدن وجودة الضرب وثبات المعايير الفنية.

مقدمة البحث:

منذ بداياتها، أولت الدولة الإسلامية اهتمامًا بالغًا بتنظيم نظامها النقدي، لما له من أثر كبير في ترسيخ الاستقرار الاقتصادي والسياسي. وقد شهد هذا النظام تطورًا ملحوظًا خلال العصر العباسي، الذي يُعدّ من أزهى المراحل في التاريخ الإسلامي من حيث التقدم العلمي والإداري، بما في ذلك تأسيس دور السك وتوحيد المعايير الفنية والنقوش التي تحمل رموزًا دينية وسياسية.

تُعد المسكوكات الإسلامية التي تعود إلى هذه الحقبة من أصدق الشواهد المادية التي وصلتنا؛ إذ حفظت أسماء الخلفاء وألقابهم وتوجهاتهم السياسية، كما حملت رموزًا عقائدية ومؤشرات اقتصادية دقيقة، ما يجعل منها مصدرًا تاريخيًا غنيًا لا غنى عنه.

ولا تقتصر أهمية دراسة هذه المسكوكات على الجانب الفني أو الأثري فقط، بل تتعداه لتكشف لنا واقع الدولة المالي وعلاقاتها السياسية وتحولاتها العقائدية، فقد كانت النقود في ذلك العصر أداة

واضحة لإبراز سلطة الخليفة، ووحدة الدولة، واستقلال قرارها السياسي، إلى جانب دورها اليومي كوسيلة للتبادل الاقتصادي والتجاري.

ينطلق هذا البحث من فرضية مفادها أن النقود العباسية تمثل وثائق رسمية صامتة، تحمل في طياتها معانٍ عميقة، ينبغي قراءتها بعين المؤرخ الواعي، لا بعين الصرّاف فقط. ومن هنا، يسعى البحث إلى تحليل تقنيات سك النقود، وفهم الرموز التي تحملها، واستكشاف أبعادها التاريخية، بهدف تبيان دورها في تشكيل الوعي السياسي والاقتصادي في العصر العباسي.

أهمية البحث

تعتبر تقنيات سك النقود وأثرها في تحقيق الاستدامة المالية في العصور الإسلامية موضوعًا ذا أهمية كبيرة، حيث تسلط الضوء على عدة جوانب حيوية، منها:

١. فهم التاريخ الاقتصادي: تساعد دراسة المسكوكات الإسلامية في فهم النظام المالي والاقتصادي للدولة الإسلامية، خاصة في العصر العباسي، مما يعكس تطور الفكر الاقتصادي في تلك الحقبة.

٢. تحليل الرمزية السياسية: تكشف النقود عن كيفية استخدام الخلفاء للسك كأداة لتعزيز الشرعية السياسية، مما يعكس التحديات السياسية التي واجهتها الدولة الإسلامية.

٣. تسليط الضوء على الابتكارات التقنية: توضح تقنيات السك المتطورة كيفية تعامل الدولة مع المعادن الثمينة، مما يعكس مستوى التقدم العلمي والتقني في تلك الفترة.

٤. دراسة التأثير الثقافي: تعكس النقود الإسلامية الهوية الثقافية والدينية للمجتمع الإسلامي، من خلال النقوش والرموز المستخدمة.

مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في عدم وجود دراسات شاملة تبرز العلاقة بين تقنيات سك النقود والاستدامة المالية في العصور الإسلامية. كما أن الكثير من المعلومات المتعلقة بالمسكوكات الإسلامية قد تكون مبعثرة أو غير متاحة، مما يعيق الفهم الكامل لدورها في تعزيز الاستقرار الاقتصادي والسياسي

أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق عدة أهداف رئيسية:

١. تحليل تقنيات سك النقود: دراسة كيفية تطور تقنيات السك والمعادن المستخدمة وتأثيرها على الاستدامة المالية.

٢. فهم الرموز والدلالات: تحليل الرموز والنقوش الموجودة على المسكوكات لفهم أبعادها السياسية والدينية.

٣.استكشاف العلاقة بين النقود والاقتصاد: دراسة كيف ساهمت النقود في تعزيز الاستقرار الاقتصادي والحد من التضخم والتزوير.

٤. تقديم توصيات: تقديم توصيات للحفاظ على المسكوكات الإسلامية كتراث تاريخي، وتشجيع الأبحاث المستقبلية في هذا المجال.

أولاً: المعادن المستخدمة في صناعة المسكوكات

دخلت في صناعة المسكوكات العديد من المعادن التي كانت على نوعين القسم الأول ما اصطلحنا على تسميته بالمعادن الثمينة، الذي يشمل على معدني الذهب والفضة فضلاً عن معدن النحاس، إما القسم الثاني أما القسم الثاني فقد أطلقنا عليه اسم المعادن التقليدية أو المعادن الاعتيادية التي كانت وبلا شك أقل في القيمة والثمن من القسم الأول على ما يبدو أنها كانت تستخدم في سك العملات عند حدوث أزمات اقتصادية حادة.

اتسمت النقود الإسلامية بحسن اختيار المعادن التي صُنعت منها، إذ اعتمدت بشكل أساسي على الذهب والفضة والنحاس، وهي معادن عُرفت بقيمتها الاقتصادية العالية، وإن تفاوتت فيما بينها. وقد جرى ضبط هذه المعادن بعناية كبيرة للحفاظ على استقرار القيمة النقدية ومنع أي تلاعب فيها. لم يكن هذا الاختيار ناتجًا عن الصدفة، بل عكس فهماً اقتصاديًا ناضجًا، راعى التوازن بين توفر الموارد الطبيعية وضمان تداول عادل ومستقر للعملة. هذا النهج الدقيق ساهم في ترسيخ ثقة الناس بالعملة الإسلامية، ومنحها مكانة مرموقة في الأسواق الداخلية والخارجية. وفيما يلي، نستعرض أهم المعادن الثمينة المستخدمة في سك هذه النقود.:

١- المعادن الثمينة وتشمل:

والتعامل بهما

أ – معدن الذهب (Gold)

وهو من المعادن المهمة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ من الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[١]، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢]، لهذا فإن الله سبحانه وتعالى حينما يذكر معدني الذهب والفضة في القرآن الكريم دليل واضح على معرفة العرب بهذين المعدنين قبل البعثة النبوية الشريفة وهذا فعلاً ما أوردته العديد من الروايات التاريخية كما وشاع استخدام الذهب في زمن الرسول الأعظم محمد ﷺ[٣]، هذا وقد حمل الذهب تسميات عديدة لعل أبرزها التبر وقد أسهبت المعاجم العربية في تناول وذكر معدن الذهب فوصفته بأنه معدن معروف وربما أنت غيره والذهب التبر والقطعة منه ذهبة وفي حديث الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ عن الذهب قال: "لو أراد الله أن يفتح لهم كنوز الذهبان لفعل" ، والذهبان هو جمع ذهب[٤] كما ووصف التبر بأنه حبات صغيرة من الذهب تشبه الرمل توجد مخلوطة مع التراب والمعادن الأخرى في مناطق المياه عادة وهو شكل من أشكال الذهب كمادة أولية[٥]، زد على ذلك أن البعض قال: "إن التبر هو الفتات من الذهب، والتبر ما كان من الذهب الذي لم يضرب أو يصنع بعد، فإذا اضرب دنانير فهو عين"[٦]، لهذا يتضح عن طريق بيان معنى كل من الذهب والتبر وجود نوع من الخلط عند ذكر الذهب والتبر لأن البعض قد يتصور خطأ أن الذهب هو التبر لكن الصحيح أن التبر تطلق على خامات الذهب بعد أن تستخرج من مناجم الذهب قبل أن تصاغ أو تسك على شكل مسكوكات، فإذا أجرى عليها أي تغيير عندئذ يصبح التبر ذهباً، وقد استعمل معدن الذهب في صناعة المسكوكات منذ وقت مبكر جداً[٧]، هذا وقد وصف هذا المعدن أي الذهب بأنه أشرف المعادن وخيرها وأدومها نفعاً واحفظها قيمة[٨]، ويمتاز بقابليته على السحب والطرق والسك[٩] فضلاً عن ذلك فإن الذهب يمتاز بأنه لا توجد فيه أي روائح كريهة كذلك يمتاز بمرونته في المعاملات التجارية ووضع العلامات التي تصوغها وإمكانية تجزئته إلى أحجام وأشكال مختلفة ولذلك فقد وصف الذهب بأنه المال الصامت[١٠].

ب – معدن الفضة (Silver)

تحتل الفضة المرتبة الثانية بعد الذهب في تسلسل المعادن التي تدخل في صناعة المسكوكات فهي فضلاً عن كونها تأتي وبشكل دائم متلازمة مع معدن الذهب فلا يذكر الذهب إلا وذكرت الفضة معه ولذلك فقد قيل: "إن الذهب والفضة اسمان عظيمان في السفليات"[١١]، هذا قد عرفت الفضة بالعديد من التسميات منها الصريف أي الفضة الخالصة[١٢] والطلسم[١٣] واللجين[١٤] ويصف ابن منظور[١٥] اللجين بالقول: "ينبغي أن يكون إنما الزموا التحقير من هذا الاسم لاستصغار معناه في تراب معدنه فلزمه التخليص". فضلاً عن ذلك فقد أطلقت كلمة الوذيلة أو السبكة على قطعة الفضة[١٦].

والفضة شأنها شأن الذهب وردت في القرآن الكريم في العديد من المواضع منها قوله تعالى: ﴿ويُطَافُ عَلَيْهِم بِآنية من فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ﴾[١٧].

هذا وقد استعمل العرب في العصر الجاهلي الفضة في صناعة المسكوكات إذ يورد أبو علي القالي[١٨] نصاً يثبت ذلك إذ يقول: "حدثنا أبو بكر بن الانباري قال: المال عند العرب الإبل والغنم والفضة، الرقة والورق والذهب، النضر والنضير والعقيان". والرقة والورق بمعنى الدراهم المضروبة[١٩]، فضلاً عن ذلك كانت الفضة تستعمل في صناعة العملات اليونانية والرومانية القديمة[٢٠].

ج – معدن النحاس (Coppe)

وهو من المعادن المهمة الذي كان يدخل في صناعة المسكوكات وقد وصِف بأنه يدخل في كثير من الصنائع بعد أن تطرق صفائحه أو تجذب أسلاكه وهو قريب من الفضة والفرق بينهما هو حمرة اللون[٢١]، ويوجد معدن النحاس في الطبيعة بأربع حالات هي النحاس الخام والكبريتيدات والأكاسيد والمركبات المعقدة[٢٢]، وقد ورد ذكر النحاس المذاب في القرآن الكريم[٢٣] بقوله تعالى: ﴿ قَالَ انفخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ أتوني أفرغ عَلَيْهِ قطراً ﴾[٢٤]، والنحاس ثلاثة أنواع رومي أحمر إلى بياض وقبرسي أحمر يابس وسوسي شديد الحمرة[٢٥]، وقد دخل النحاس في صناعة المسكوكات منذ القدم بدءاً من المسكوكات الإغريقية والمسكوكات التي ضربها ملوك حمير، وقد كانت المسكوكات الأخيرة تحمل رسم على أحد وجهيها وصورة بومة على الوجه

الآخر وكانت البومة شعاراً لمدينة أثينا وهذا يدل على أن ملوك حمير ضربوا مسكوكاتهم على طراز مسكوكات مدينة أثينا[٢٦].

د - المعدن المركب الاليكتروم (Electrum") الذهب - الفضة

عرفنا في بداية تناولنا للمعادن المستعملة في صناعة المسكوكات إن كل من معدني الذهب والفضة يتصدرا قائمة هذه المعادن واتضح أيضاً أن المسكوكات الذهبية كانت تسك من الذهب الخالص وكذلك الحال مع المسكوكات الفضية فهي تسك أيضاً من الفضة الخالصة، ولكن على ما يبدو إن العاملين في مجال صناعة المسكوكات عرفوا طريقة جديدة تتلخص بخلط معدني الفضة والذهب لينتج معدن جديد مركب من هذين المعدنيين وقد اطلقت الدراسات الاقتصادية الحديثة اسم الاليكتروم[٢٧] وقد عثر علماء الآثار والتاريخ على العديد من المسكوكات المصنوعة من خليط معدني الفضة والذهب ولعل أبرزها نقود الملك كروسوس ملك ليديا فضلاً عن نقود أخرى لملوك الفرس ونقود تعود لقليبب والد الاسكندر المقدوني[٢٨] زد على ذلك أن بعض مدن آسيا الصغرى عرفوا معدن الاليكتروم في سك عملاتهم مثل (سيزيك Cyzikus) و (لامساك Lampsacus)[٢٩].

كما إن العرب في العصر الجاهلي عمدوا إلى خلط كل من معدني الذهب والفضة فضلا عن النحاس في إنتاج الفلوس (النمي)[٣٠]، ومن المؤكد أن مسألة خلط المعادن لم تكن من الأمور السهلة بل أنها تحتاج إلى دقة متناهية عن طريق وضع نسب معلومة من كل معدن لكي يتناسب مع الهدف والغاية المنشودة بل وربما إن القائمين على إصدار هذا النوع من المسكوكات كانوا يلجؤون إلى عملية الخلط في المعادن عند حصول ندرة في الذهب أو الفضة.

هـ - معدن الرصاص (Lead)

يعد الرصاص من المعادن الثقيلة التي عرفت في البلاد العربية منذ القدم[٣١]، ويصف ابن منظور[٣٢] هذا المعدن بالقول: "الرصاص معروف من المعدنيات مشتق من ذلك لتداخل أجزائه". ويتم في الغالب الحصول على الرصاص من كبريتيد الرصاص الذي يكون في بعض

الأحيان ممزوجاً بكميات من الفضة والرصاص، والرصاص يوجد على نوعين الأسود الذي يسمى (الأسرب) والأبيض الذي يسمى (القلعي)[٣٣]، ولكن كان استعمال الرصاص أقل من بقية المعادن المستعملة في صناعة المسكوكات بل وكان يستعمل بشكل محدود[٣٤] فضلاً عن ذلك فقد دخلت في صناعة المسكوكات العديد من المعادن الأخرى إلا أنها كانت بصورة قليلة جداً بل وربما ان هذه المعادن كانت تستخدم في صناعة بعض العملات المحدودة والمستعملة في التداول المحلي، ولعل أبرز هذه المعادن هي معدن البرونز Bronze، ومعدن النيكل Nickel والحديد Iron فضلاً عن معدن الألمنيوم Aluminium[٣٥]، لهذا نستطيع أن نستنتج عن طريق ما ذكرناه أن العديد من المعادن استخدمت في صناعة المسكوكات فالبعض منها كان غالي الثمن والبعض الآخر كان متوسط الثمن وهناك نوع ثالث كان رخيص الثمن والشيء المهم أن الأزمات الاقتصادية كانت تؤثر في صناعة المسكوكات بسبب ندرة المعادن أو وفرتها.

ثانياً: إعداد قوالب السكة:

تُعد تقنيات سك النقود في العصور الإسلامية من أبرز الإنجازات التقنية التي شهدت تطورًا لافتًا، لا سيما خلال العهدين الأموي والعباسي. فقد بدأت الدولة الإسلامية باستخدام قوالب السك المحفورة والمصبوبة بعناية فنية فائقة، مما أتاح إنتاج عملات عالية الجودة تتميز بدقة النقوش ووضوحها. ولم يقتصر هذا التطور على الجانب التقني فحسب، بل شمل أيضًا استخدام طرق مبتكرة في دمج المعادن الثمينة، إلى جانب تنوع التصاميم التي زخرت برموز دينية وعبارات توحيدية. كل ذلك منح النقود الإسلامية طابعًا حضاريًا مميزًا وجعل منها وسيلة للتعبير عن الهوية الدينية والثقافية للدولة الإسلامية.

وقبل الدخول في تفاصيل عمل المشرفين والقائمين على دور ضرب النقود ولاسيما من الناحية الإدارية والفنية لابد لنا أن نتعرف على طريقة إعداد قوالب السك وهي المرحلة الثانية التي تلي توفير المعادن المستخدمة في صناعة المسكوكات وقد قسم المختصون قوالب السك إلى قسمين وهما:

١. القوالب المحفورة مباشرة:

أ- سهولة الحفر عليها أسهل من البرونز والحديد.

ب-في حالة حدوث أي خطأ في النقوش يمكن صهر هذا المعدن بسهولة واعادة الحفر عليه[٤٠].

لهذا يتضح إن كل واحد من القوالب التي ذكرناها كان لها محاسن ومساوئ إلا ان محاسن القوالب المصبوبة كانت أكثر من مساوئها وهذا ما أدى إلى أن تستعمل في دور ضرب النقود بدلاً من القوالب المحفورة مباشرة.

ثالثاً: أعداد سبائك المسكوكات

تعد مسألة تهيئة سبائك المسكوكات من الأمور المهمة جداً كونها تتطلب مهارة ودقة كبيرتين، كون إن سبائك المسكوكات تختلف من عملة لأخرى، فلو بدأنا بسبائك الدنانير فهي تعد من أقدم[٤١]، والطرائق التي اتبعت منذ أقدم العصور الإسلامية في دور ضرب النقود الإسلامية التي بدأت منذ عصر الخليفة عبد الملك بن مروان إذ كان "يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوت والستوقة والبهرجة" ، وقد اتبعت هذه الطرقة أيضاً في مصر في العصر الطولوني، والواقع إن إعداد السبيكة وختمها بالقالب أنما يعني الأدوار الرئيسة التي يمر بها المعدن الخام حتى يصبح عباره معتمداً للختم عليه (بالسكة)[٤٢]، ولعل أقدم الطرائق التي كانت تستعمل في تهيئة السبيكة للسك هي الطريقة الجافة أو طريقة (التجقين)[٤٣]، والمعروفة (بالتعليق) أي يسبك الذهب المخلوط بالفضة في النار عدة مرات، وذلك كلما ترده إلى النار في التعليق لا يثبت إلا الذهب الخالص الناصع لكمال طبيعته وتفارقه الفضة المخالطة قهرا ومعها اليسير من الذهب الضعيف القوة الذي لم ينته ولم يبلغ[٤٤]، وتتلخص هذه الطريقة في أن يؤتى بأربعة أقداح (جفان) بأوزان متساوية في كل واحد منهم من الذهب والفضة والتراب والنخال والطين مساو للآخر ، وعلق الجميع في وقت واحد، وأوقد عليهم وقيداً واحداً بحيث لا يكون بعضهم فوق بعض، ويحاذيهم العمل بتتابع إلى حد الكمال خرج الجميع عياراً واحداً محققاً محرراً، على إن الذهب الذي تحققت عياره وخلوصه من الفضة لو علق بعد ذلك مرة أو مرتين لم يخرج منه في مرات التعليق سوى الذهب الدون (الرديء) وكلما زدته تعليقاً خرج منه الذهب في المرة الثانية أعلى من الأولى والثالثة أعلى من الثانية والرابعة أعلى من الثالثة في التعليق إلى